أنـطولوجيـا الروايـة البوليسيـة

حنان بن قيراط
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخّص:

هذه الدراسة محاولة لإضاءة جانب مهمّ من جوانب خصوصيّة الرّواية البوليسية باعتبارها واحدة من أهمّ أنواع الأدب الهامشي الّذي لم يتاسّس بعد، ولم تعترف به المؤسّسة النّقدية ولم تُدرِجْهُ ضمن اهتمامها في التّدريس والنّقد، ذلك أنّها ترى فيه - بجميع أنواعه - قصورًا فنيًّا باعتباره أدبًا دونيًّا وشعبيًّا لا يمثّل النّخبة المثقّفة. إلّا أنّنا نرى أنّ كلّ عمل أدبي مهما كان يتّصف بصفة الأدبيّة لما فيه من جمالياتٍ فنيةٍ يتميّز بها عن غيره من الأعمال الأدبية.

وما كان للرّواية البوليسية الحديثة أن تحقّق ما حقّقته من نجاحٍ لولا أنّها استطاعت الإفادة من شكل الرّواية عمومًا، ولئن اعتُبرت من الآداب غير الرّسمية فقد استقطبت الكثير من القراء الذين تابعوها باهتمام بالغ، متابعين تفاصيلها وجزئياتها مثلهم في ذلك مثل المحقّق الّذي يشترط فيه الذّكاء وسرعة البديهة.

الكلمات المفاتيح: الرواية البوليسية، إشكالية الرواية البوليسية، أنواعها، خصائصها، عناصرها.

Résumé:

Cette étude est une essaye pour illustrer un important coté de roman policier, comme il est un des types de paralittérature ou la critique ne lui confesse pas à l'enseignement et la critique, puisque il est considéré de qualité inférieure et populaire et ne représente pas l'intellectuelle élite.

Le nouveau roman policier est succé car il est bénéficie de la forme du roman exactement, et il n'est considéré pas comme officielles littératures, Malgré le grand nombre de récepteurs publiques qu'ils sont suivi leur différentes détails comme l'enquêteur qui se distingue l'intelligence et sagacité.

Mots clé: roman policier, La problématique du roman policier, Types, Caractéristiques, Éléments.

Abstract:

The present study endeavors to highlight a main aspect of the specificities of the detective novel as one of the most types of marginal literature that has not been created

yet. This kind of literature was not also recognized by critical studies and was not classified among its concerns in teatching and criticism because it believes that all kinds of margial literature are characterized by artistic shortcomings, for it is an inferior and a popular literature, which does not represent the intellectual elite. However, we think that every literary work is seen as a kind of literature owing to its distinguished and specific artistic aesthetics.

The modern detective novel would not have achieved its success if it had not been able to benefit from the form of the novel although , it was seen as an informal literature. it attracted many readers who followed it with great interest and who inspected its details like a witty investigator.

Key words: the detective novel, the problem of the detective novel, Types, Features, Elements.

تقـــــديـــم:

ظهرت أجناسٌ أدبيةٌ عديدةٌ لم تكن معهودةً من قبل ولاقت انتشاراً كبيراً في فترةٍ وجيزةٍ. ولم تعد مقـــروئية الأدب حكراً على الطبقـــة الأرستقراطية والنخبة المثقّفة فقط، بل امتدت إلى الطبقة البرجوازيـــة والفقيـــرة.

وقد رفضته المؤسّـــسة النقديـــة وهمّشته وجعلته خارج نطاق اهتمامها، فوجد الناقد نفسه في مواجهة نوعين من الأدب : أدبٌ رسميٌّ فصيحٌ معترفٌ به يدرس ويدرّس ويخضع للنقد والتأويل. أدبٌ هامشيٌّ مهمّشٌ تمخّض عن أدبٍ استهلاكيٍّ وغير معترفٍ به في التدريس والنقد، وله عدّة تسميات غير متّفق عليها، وتنضوي تحته عدة أنواعٍ منها : الرواية البوليسية، رواية الخيال العلمي، الروايات الوردية، الروايات الشعبية، شرائط الرسومات، الرسومات الحائطية...

ودراستنا هذه تقوم على واحدةٍ من أهمّ أنواع الأدب الهامشي وهي الروايـــة البوليسيـــة، وسنقوم بدراسةٍ لبعض جوانبها وأهم خصائصها وعناصرها.

1- إشكاليـــة الروايـــة البوليسيّـــة:

ورد تعريف الرواية البوليسية في قاموس **روبيـــر** الصغيرLe petit Robert بأنّها : " من الأنواع الأدبية المثيرة للانتباه، وتختصّ بكشف الأعمال الإجرامية واللغـــزية تقريبا... والرواية البوليسية حكايةٌ تبدع البرهان الذي يستبدل الرعب بالسكينة"[1]، أي أنّها ترتكز على الجانب المفزع والجذّاب الذي تتحرّك فيه الشخصيات وفق حركةٍ محكمةٍ ومضبوطةٍ سلفاً من الكاتب، وما يهّمنا هنا هو: " أن تشدّنا إليها وتفزعنا حتى النهاية، لأنّ دورها ليس سبر الأغوار ولكن تحريك الغرائز بواسطة حركةٍ مضبوطةٍ كحركة الساعة"[2].

نجد تعريفاً آخر لها في القامـــوس الموسوعـــي الكبير Le Grand Dictionnaire encyclopédique بأنّها: " تختص بالشرطة ومهامها، والتحقيـــق البوليسي هو الذي يعتمد على الشرطة ... فترويـــها لنا وتضعها في مشهـــد التحقيق الإجـــرامـــي"[3].

لا يبتعد هذا التعريف كثيراً في معناه عمّا ورد في القاموس الموسوعي **"هاشيت"** الذي جمع بينها وبين الفيلم البوليسي: " روايةٌ، فيلمٌ بوليسيٌّ يضعنا في مشهدٍ أساسي لشخصياتٍ بوليسيةٍ مثل المحقّـــق في صراعه ضدّ اللصوص أو المجـــرمين"[4].

نجد كذلك تعريفاً آخر في القاموس الموسوعـــي Dictionnaire encyclopédique بأنها: " تبيّـــن عموماً الظروف الغامضة والدراميّة لـــجريمةٍ ما، ومغامرات المحقّق التي تنتهي باكتشاف الـــمجرم"[5].

نلاحظ أنّ هذه المعاجم تشترك في تعريفها للرواية البوليسية بأنّها تقوم على عنصر الجريـــمة كلغـــزٍ محيّـــرٍ جدّاً يصعب حلّه، ويقوم المحقّق بحلّ هذا

اللغـــز بوسائل منطقيةٍ خاصّةٍ تختلف من روايةٍ بوليسيةٍ إلى أخرى، مثلها في ذلك مثل الفيلم البوليسي الذي عادةً ما نجده مقروناً بها.

يضع كاتب الرواية البوليسية الخطوط الأولى لفعل الجريمة وكيفية وقوعها بطريقةٍ فنيةٍ جماليةٍ، ومن ثمّ يقدّمها للقارئ في لبسٍ كبيرٍ يعبّر فيها عن فكرةٍ معيّـــنةٍ أو يدافع عن قضيةٍ ما. وهذا ما دفع بالباحثيـــن **"بوالـــو– نرسجاك"** إلى القول بأنّ: " الرواية البوليسية جنسٌ أدبـــيٌّ يتميّـــز بسماتٍ ثابتةٍ، نظـــراً لما يحمله في طبيعته. لذا لـــم يسجّل أيّ تطوّرٍ جوهري في هذا الجنس منـــذ إدغـــار بـــ ".[6]

هناك من يرى أنّ الإجرام عنصر أساس فيها، وهو موجودةٌ منذ ظهور الإنسان حين قتل **"قابيل"** أخاه **"هابيل"**، وهذا ما يذهب إليه **"فرانسوا ريفيير"** قـــائلاً: " وبدون شكٍ، فإنّ ميلاد النص البوليسي متّصلٌ بالإنسان الأوّل، وبالتحديد مع أوّل نواةٍ في المجتمع، وقد ورد في الإنجيل أنّ قابيل cain قتل أخاه هابيل in cold blood ".[7]

جاء في سفر التكوين أنّ **"هابيل"** كان راعياً للغنم و**"قابيل"** عاملاً في الأرض، وقدّم كلّ واحدٍ منهما قرباناً للرّب، فنظر الرّب إلى **"هابيل"** وقربانه ولم ينظر إلى **"قابيل"** وقربانه فاغتاظ وسقط وجهه: " وكلّم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أنّ قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرّب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم أحارسٌ أنا لأخي. فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحتَ فاها لتقبل دم أخيك من يدك...".[8] ونجد أنّ القرآن الكريـــم قد تعـــرّض لـــهذه الحادثة أيضاً بما لا يختلف كثيراً عن التوراة.

ولا يمكننا نفي بعض عناصر الرواية البوليسية من أن توجد في الآثار الأدبية القديمة والخالدة مثل **"الإليـــاذة"** فقد: " تعرّضت في كثيرٍ من مقاطعها إلى

موضوع التشرّد المفروض على البطل وما يلحقه من بحثٍ وتقـــصٍّ، كما تناولت موضوع الجريـــمة والقتل الجماعي بغيـــة الفوز بالأميرة أو منصبٍ ذي نفوذٍ في العـــرش"[9].

في التراجيديات الإغريقية القديمة نجد أيضًا المكان ضاق بالجثث وضاقت به المشاهد في المسرح بين الآلهة والطغاة وسفّاكي الدماء: " وحسب أرسطو فإنّ هـــدفها هو تطهير أهواء النفس عن طريق تحفيـــز التأثير العنيف بالخوف والرحمة، وكثيـــرٌ من هذا نراه في الرواية البوليسية التي خصّصتها أيضاً لتكون سببًا في التأثيـــرات القويّـــة ".[10]

وهناك من يرى أنّ الجريمة مبثوثةٌ في كثيرٍ من الكتابات الأدبية التراثية، وفي هذا السياق يمكن الحديث عن أنواع أدبية تهتمّ بالإجـــرام كالحكايات الخرافية والقصص الشعبي والأساطير... فقد تعرّضت لموضوع الجريمـــة وأسبابها ونتائجها، كما تعدّدت طرق البحث عن المجرم قصد الانتقام أو فرض القصاص مثل **عطيل، روميو وجولييت** للإنجليزي "**شكسبير**"، **سيرة الزيـــر سالم، سيرة الملك الظاهر بيبرس، قلقـــامش، ألف ليلة وليلة** بما فيها القصة الإطـــار وبعض قصصها الفرعية مثل حكاية التفاحات الثلاث، حكاية اللص والتاجر، حكاية علي كوجيا *... حيث تعرض نماذج تقترب من القصص البوليسية: " وهذه القصص رغم بساطتها تمثّل نمـــاذج توازي تركيبية أنواع القصص البوليسية التي ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر، ثمّ انتشرت ونمت نمواً كبيراً حتّى يومنـــا هذا"[11].

كذلك "**أوديب**" الذين يراه الكثير من الدارسين أنّـــه يجمع بين وظائف المجرم في قتل أبيه، والمحقّق الباحث عن الحقيقة، والضحيّة الواقع تحت ظلمة الأقدار ولعنة الآلـــهة: " أوديب قاتل أبيه دون أن يعلم، وهو كذلك جدّ كلّ المحـــقّقيـــن، لأنّه تولّى تحقيقاً قـــاده لاكتشاف جريمته".[12]

لكن هل يمكن قبول ذلك ؟ واعتبار كلّ نصٍ أو روايـــةٍ روايةً بوليسيـــةً نظراً لتوفّرها على عنصـــر الجريمـــة ؟

نحن نعتقد أنّ **أوديبًا** لا يمكن أن يرقى لمستوى المحقّق بصورته التي يظهر بها في الأسطورة؛ فقد خرج هارباً من مدينتـــه خوفاً من صدق النبوءة لتتحقّـــق أخيراً ويقتل والـــده فيكون مجرماً. أمّا عن كونه محقّـــقاً فهو لا يعتبر كذلك ؛ لأنّ المحقّـــق في تحقيـــقه ينطلق ممّا خلّفه المجرم من آثار وأدلّـــة ويبحث فيها بفطنته لكشفه في الأخير وهذا ما لا نجده في "**أوديب**"، رغم تعرّضه لامتحان صعبٍ واستعمال ذكاءه ليتوصّل لحـــلّ اللغـــز.

أمّا رواية "**الجريمة والعقاب**" ** للكاتب "**دوســـتويفســـكي**"، فهي قريبةٌ في موضوعها من الرواية البوليسية بما اشتملته من عناصر بوليسية كالجريمة والتحقيق، رغم بعض الفروق التي ميّـــزتها كنهاية الرواية مثلاً؛ إذ نجد المجرم يعترف بصنيعه في مخفر الشرطة، عكس الرواية البوليسية التي نجد فيها المحقّـــق يحقّـــق في مسرح الجريمة حتى يتوّصل إلى كشف المجرم. وفي ذلك يقول "**شكـــلوفسكي**" أنّ روايته : "لـــم ترتكز إلى الحلّ، بل إلى تصادم الحلول وإلى دحض بعضها للبعـــض الآخـــر"[13].

فالجريمـــة هنا لم تكن معـــنيّة بـــراسكولينكوف وحده، بل حتى بالشخصيات الأخرى فيها التي تتخطّى الحدود الثابتة للحياة السياسيةٍ والسيكولوجية والاجتماعية كالإجرام والعهر والإدمان على الكحول***. ومهما يكن فإنّ عظمة "**دوستويفســـكي**" تكمن في استيعابه للعديـــد من الجوانب الجوهرية في روســـيا وطرحها بوعـــيٍ بعد أن: " فهم النفس الروسية ووصفهـــا كما هي، مستعيناً بالتحليل الخلقي والنفسي للـــدوافع العميقة التي تحرّك شخصيـــاته نحو الخير كـــديفوشكين، أو الشرّ كـــراسكولينكوف"[14].

2- ظهور الرواية البوليسية وانتشارها:

ظهرت الرواية البوليسية في جوٍّ من الأحداث الرهيبة التي سادت القرن 19م وعلى رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا، وتعتبر وليدة الحداثـــة الغربية التي عرفتها أوربا بعد الثورة الصناعية، فخلّف هذا التحـــوّل- رغم إيجابياته - مشاكل وأزماتٍ عديدةٍ مسّت التركيبة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية والسياسية والدينية... من أهمّها كثرة السكان والبطالة والفقر والعنف وانتشار الجرائم التي قامت بنشرها مختلف الجرائد والمجلات.

وأقبل القرّاء بنهمٍ شديدٍ على قراءة قصص الجرائم هذه، لما تضمّنته من ألغازٍ وإثارةٍ وتشويقٍ بشيءٍ من اللمسات الخيالية، فكانت بداياتها فترة إثارةٍ وأصالةٍ في القصص الخيالي البوليسي، فازدهر فنٌّ لم يكن موجوداً من قـــبل ولقي إقبـــالاً كبيراً بين جمهور القرّاء، لأنّه كان يعكس مشاكل الطبقة الفقيرة والمهمّشة في المجتمع في بيئـــةٍ متحضّرةٍ كثيفةٍ بالسكان.

اختلفت الرواية البوليسية عن قصص الإجرام التي عُرضت في الجرائد والمجلات، في أنّها كانت تضمّ ما هو أكثر وأعمق من اللغز والإثارة، فرسمتْ صورةً لثقافة المجتمع، وحلّلتْ العلاقة بين طبقاته وطرحتْ على قارئها تساؤلات مهمّة حول المثل والأخلاقيات والطبيـــعة الإنسانية، وعالجتْ الجريمة من خلال تتبّع مفاتيح اللغز والبحث عن المجرم، حتى يكشفه لنا المحقّق ويخبرنا كيف تمّ حلّ هذا اللغـــز. وبإمكان القـــرّاء النظر إلى القصة البوليسية على أنّها معركة ذكاءٍ بين المجرم والمحقّق.

وكانت الانطلاقة الفعليّة للرواية البوليسية في أمريكا مع مطلع القرن العشرين (1910- 1920)، حيث: " وجدت في أمريكا الأرض التي اعترفت بها " [15]، نظرًا لحداثة المجتمع الأمريكي وانفتاحه على كلّ عملٍ إبداعيٍّ جديدٍ طالـــما أنّه ينـــقل حكاياتٍ وأحـــداثاً مستمدّة من العمـــق

الأمريكي. كما كان لعملية النشر والتوزيـــع الأثـــر الواضح للطبقات الفقيرة في اقتنـــاء الكتب البوليسيـــة وقراءتها، بعدما كان ذلك حكراً على الطبقة الأرستقراطية والنخبة المثقّـــفة، وكان ذلك بعـــد : " اختراع المطبعـــة حيث ظهر شكلٌ جديدٌ للثقافـــة بجانب الأدب الرسمي والتقاليـــد الشفـــوية ".[16]

وظهرت في أمريكا روايات تسمى Dime Novels وشخصية المحقّق Nick canter : " الذي أصبح أكثر شعبيةً من أبطال Dime Novels، وهذه الروايات كانت لها شهرةٌ واسعةٌ حيث ترجمت في عدّة دولٍ وخاصّةً فرنسا. ومغامراته تناولت الشخصيات الخارجة عن القانون"[17]. وقد وردت فيها قصص الواستارن western stories التي نشرت مغامرات **"بيفالو بيل"** bufallo bill بطل القرّاء الأمريكيين آنذاك من خلال مغامراته المتميّزة والمثيرة ضدّ الهنود الحمر ومحاربته لمكائد أهل المدن.

بين 1919 و1933 انتشرت في أمريكا الجريـــمـــة والفساد بكثرةٍ، فظهرت الرواية السوداء وكان الفضل للكاتب **"داشيـــل هاميت"** الذي تعـــرّض لذلك في روايـــاته البوليسلة حيث: " كشف الوجه الخـــفي لمـــدينة سان فرانسيسكو ووضعنا في مشاهد لشاربـــي الخمر والشرطييـــن الفاسدين والمـــحامـــين الأنذال، وقد نشرها في مـــجـــلة القناع الأسود. ومع ريـــمون شاندلـــير، أخذ هذا الجنس دوراً أكثـــر دراميةً ".[18]

أمّا فرنسا فكانت ذات تركيبةٍ ملتزمةٍ في الأدب فلا تقبل إلاّ ما كان معروفاً ومختصًّا بالطبقات الراقية، وتضع شروطاً لتقبّل آدابٍ جديدةٍ. لذلك وضعتها جانباً حتى 1945 حين طرحت دار النشـــر **"غاليمار"** gallimard سلسلة من القصص البوليسية ســـمّيت la série noire تحت إشراف الكاتب **"مارسيل دي هاميل"** Marselle de Hamell وقد نشرت عناوين الروايات البوليسية الأمريكية، أما الكتّاب الفرنسيين فكتبوا الروايات السوداء تحت

أسماء مستعارة لكتّاب أمريكيين مثل: **"ليومالي"** Leo Malet باسم **"فرانك هاردينغ"** Frank Harding أو **"ليو لاتيمي"** Leo Latimer والكاتب **"جون أميلا"** Jean Amila باسم **"جان ميكارت"** Jean Meckert ... ".[19]

وازدادت مواضيعـــها تعقيـــداً وتنوّعـــاً مع الزمن، ما جعلها تبلغ المـــراتب الأولى وتتربّـــع على أوائل أرقام التوزيع قديماً وحديثاً.

3- أنواع الروايـــة البوليســـية

للروايـــة البوليسية عناصرٌ مهّمةٌ لا تخلو منها: " العناصر الأساسة الثلاثة للرواية البوليسية هي المجرم، الضحيّة والمحقّـــق"[20]. وعليه فسيكون تحديد أنواعها قائماً على هذه العناصر؛ فكلّ عنصرٍ يختصّ بنوعٍ معيّنٍ لتكون لدينا ثلاث أنواعٍ: رواية المشكل، رواية التشويق، الرواية السوداء. وسنقوم بعرضها مع ذكر بعض أعلامها:

3-1- روايـــة المشكل : Roman Problème

يكون محور الرواية هو المحقّق، حيث يتفنّن الروائي في كيفية تصوير وعرض قدراته الذهنية وبحثه جاعلاً منه عبقريًّا لا مثيل له، لدرجة الوصول به أحياناً إلى مصاف أبطال الأساطير والخرافات الخارقين، كما نجد أنّه يظهر بسماتٍ أخرى معيّنةٍ تطبعه منها:

- ظهور المحقّق في بعض الروايات على أنّه رجلٌ هاوٍ أو موظّفٌ خاصٌّ أو عند مؤسّساتٍ رسميةٍ، فهو: " رجلٌ اختار العيش في حالة خطرٍ من أجل أجرٍ زهيدٍ... يتولّى تحقيقاً لإبطال اللغـــز وحلّه لذلك يجب عليه أن يفكّر جيّداً... وتبنى رواية المشكل شيئاً فشيئاً فيصبح مؤجّـــرًا لاستعمـــالٍ

خاصٌ أو هاويًا أو موظّفًا، يعمل بدءا من ذلك من أجل زبونٍ يصعب إرضـــاؤه دائماً، ويكون مستعجلاً. ولا يجب أن يحبس نفسه في مكتبـــه ويختـــبر صحّـــة الدلائل الغامضة، بل يجب عليه أن يذهب إلى مســـرح الجريـــمة"[21].

- يبحث المحقّق فـــي الدلائل المقدّمة ويجمع شتاتها حتى يظفر أخيراً بمبتـــغاه، فنجده: " يربح دائماً لكنّه يخـــسر كثيراً... محـــدّدٌ في نتائجه لأنّه شكّاكٌ بشدّةٍ رغم أنّه عنيدٌ في تدارك خطـــئه، لأنّ هذه الشخصية تضع القـــارئ في اللغـــز وأسبابـــه..."[22].

- يكون المحقّـــق في صراعٍ مع مجرمٍ ذكيٍّ، وقد يكون غير معروفٍ أو مختـــلطاً بالآخرين، فتعالج الرواية القضية بعيداً عن مسرح الجريـــمة وتسمى روايـــةً تحليليةً.

وأشهر من يمثّل هذا الاتجاه من الروائيين ما يلي :

- **إدغار آلان بو:** يعتبر أب الرواية البوليسية وهو الذي وضع ضوابطها التي نعرفها اليوم، وقد كتب أول رواية بوليسية "جريمتا شارع مورغ" : Double Assassinat dans La rue morgue في أفـــريل1841 ونشرها في جريدة **غراهـــام** الباريسية، وكان شرطيّـــه الســـرّي " أوغست دوبيـــن August Dupin" الـــهاوي اللامع الذي يستخدم المنطـــق لحلّ ألغـــاز وملابسات الجريمـــة.

يذكر النقاد أنّ " **بو**" قد تأثّر في حكاياته البوليسية بالشخصية الفرنسية "**فرانسوا يوجيـــن فيدوك**"، اللصّ التائب الذي فتح أوّل مكتبٍ للمخبـــرين السرّيين 1817 ببـــاريس ونشر مذكّـــراته 1828 التي احتوت وقائع بوليسية حقيقية، وتأثّـــر به لدرجة أنّ بعض حكايات "**بـــو**" يغلب عليها

الجـــوّ الفرنسي والأسمـــاء الفرنسية، في العصر الذي عاش فيه فيـــدوك... [23].

تتميّز أعماله بمهاراته التحليلية في استيفاء ذوق الجمهور حتى وصلت أعداد المجلاّت المطبوعة تحت إشرافه أرقاماً ليس لها مثيلٌ: " كانت قصص الرعب القوطية التي كتبها **بـــو** طبقاً لما اكتسبه في دراساته لأكثر المجلاّت شهرةً في عصره ومن روائعهـــا **انهيار منزل آشر** usher... وبعض القصص الأخرى التي أدّاها طبقاً لأسلوبٍ نفسي مدروسٍ دراسةً جيّدةً. وكذلك كانت قصصه البوليسية مثل **جرائم شارع المشرحة** 1841 التي يعتبرها المؤرّخون الأولى في بابـــها... وربما كان لأعماله وخصوصا كتاباته الانتقادية وقصائده الجيّدة الصنعة أثرٌ في فرنسا أكثر من أيّ مكانٍ آخر، إذ قام الشاعر الأديب شارل بودلير بترجمتها"[24].

• **أغاثا كريستي Agatha Christy:** تعتبر من أعظم كتّاب عصرها من حيث انتشار كتبها والنسخ الموزّعة منها حوالي 400 مليون نسخةٍ عبر أنحاء العالم. تميّزت بخيالها الخصب في إبداع الحبكات المعقّدة لإبراز العالم المتوحّش بالجرائم؛ فحوّلت الروايـــة البوليسيـــة من قصةٍ الحبكة إلى قصةٍ تتحدّى عقل القـــارئ، فما إن يعتقد أنّه عرف المجرم حتى يقتل ويدرك أنّـــه سلك الطريق الخطأ.

تبدي **كريستي** اهتماما خاصّا ببطل رواياتها **"هيركيول بوارو"** hercule Boirou بلجوئه للمنطق في تحليل أكثر الجرائم بشاعةً مثل: جريمة في قطار الشرق السريع، جريمة في ملعب الغولف، مرآة ميت، عشرة زنوج صغار...

• **كونان دويل:** أبدع شخصية المحقّق "**شارلوك هولمز**"Holms في 1887 روايته **دراسة في اللون القرمزي**، ولكنّه لم يشتهر إلاّ سنة 1891 برواية **فضيحة في بوهيميا** التي جمعت في كتاب بعنوان "**مغامرات شارلوك هولمز**" وشمل 22 قصّة، ثمّ جمعت 11 قصّة أخرى في كتاب "**مذكرات شارلوك هولمز**".

يعتبر "**شارلوك هولمز**" أشهر أبطال الروايات البوليسية في تحقيق الجرائم الغامضة، فنجده يلاحظ، يسمع، يحلّل، يطرح الأسئلة حتى يحصل على دليل يمثّل الجزء المفقود فيعيد بناء تفاصيله ليظهر له المشهد واضحاً ويكشف المجرم. وتجدر الإشارة أنّه قد تحوّل إلى رسوم متحرّكة تحت عنوان "**المحقّق كونان**"، والذي لقي رواجاً وشهرةً بين مختلف أوساط النّاس.

• **فـــان دين:** Van Dine: وهو الذي وضع قـــواعد الروايـــة البوليسيـــة المتعـــارف عليـــها منذ **إدغـــار آلان بـــو** حتى الآن ****.

3-2- رواية الإثـــارة : Roman Suspense

تكون الشخصية المحورية في رواية التشويق الضحيّة، ويراعى فيها ما يلي:

- تصويـــر الصـــراع القائم بين الضحيّة والمجـــرم، لدرجة أنّ ذلك: " يثيـــر الانتباه والحزن الشديد لدى القـــارئ"[25]، فنجده مقبوضاً في حالة خوفٍ كبيـــرٍ لما سيحدث، لأنّ الضحية تبدو دائـــماً بريئـــةً وقاصرةً.

- نجد أنّ هناك خطراً عظيماً يهدّد الضحية ويترصّدها، لدرجة أنّها تبدو كطريدةٍ يحاول المجرم الإمساك بها، فهي: " مثل العنـــزة التي تستدعي انتباه الضواري التي تتـــرصّدها، فتنـــظر، تسمع. الخطر ما زال مرتقباً في كلّ مكان، لذلك يجب عليها الانتـــظار وعدم الهروب حتّى تحدّده بدقّـــةٍ،

حينها تحاول الفرار أو الهروب : تهديـــد، انتظار، مطاردة. هذه هي المرّكبات الثـــلاثة للـــتشـــويق"[26].

ومن أشهر أعلام هذا الاتجاه من الروائيين :

• **ستانلاي غاردنر :** Stanley Gardner : الضحيّة في رواياته دائماً تكون بريئـــةً ومهدّدةً وشخصية **بيـــري ماسون** Perry Mason تلعب دور المحقّق وهو محامي الضحية أيضاً : " وهذه الثنائية محـــامي- ضحيّـــة تسجّل تحوّلاً بين رواية المحقّـــق وروايـــة الضحيّة بدون دفـــاعٍ " [27].

• **ويليام إيريش** : William Irish : يعتبر سيّد الإثارة والتشويق، فهم جيّداً ذلك في هذا الصنف وارتقى به لدرجـــة أنّه لا يضاهيه أحدٌ.

3-3- الروايـــة الســـوداء : Roman noir

تكون الشخصـــية المحـــورية فيها الـــمجرم الذي يسيطر على الأحداث. وللرواية السوداء سحرٌ خاصٌّ: " لأنـــها تثـــير الغرائز بفظاظةٍ، وتدفع إلى رغبةٍ في المغامرات المخيفة للفرار من الضجر والمـــلل... وتستند مثل التراجيديا إلى الذعر والرحمة، منظّمةً في مشهدٍ خاصٍّ لتحمّس الغريمـــة وتسلّي الخيال من الانحراف في هوّة الشرّ والمعاناة الخالدة"[28]، ويكون ذلك كما يلي:

– المجرم ذكيّ جدًّا مثل المحقّـــق، إلاّ أنّـــه يختلف عنه في الباعث والغـــاية من ارتكاب الجريمة أو الجرائم، فيكون التركيز على الأحداث المكوّنة لذلك.

– يتحوّل المـــحقّـــق من رجل مباحثٍ ومحـــلّلٍ إلى مطاردٍ عنيفٍ وقاتـــلٍ دفاعًا عن نفسه أو موكّلـــه، يؤثّـــر ويتأثّـــر ويساهم في بناء الأحداث ويجازف إلى أن ينجـــح في حلّ اللغـــز أو السعي لتغيير وضعٍ اجتماعيٍّ معيّنٍ.

مـــن أبرز من يمثّل هذا الاتجاه :

• **داشيل هاميت** Dashiel Hammet : لـــه عدّة روايات منها: **الحصـــاد الأحمر، الدّم الملعـــون، الصـــقر المـــالطي، المفتـــاح الزجـــاجي**... وقد تعرّض فيها للعنف والشراسة والقتل بالقوّة خاصّةً ما تعلّق منها بالسّاسة الذين يبيـــعون ذمـــمهم للصوص ضامنين لـــهم حمايـــةً فعّـــالةً، فيتصدّى لهم بطلـــه الذي ينتصر دائماً في النهايـــة : " ليس لشخصيات هاميت إلاّ مهنـــةٌ واحدةٌ هي تلك التي تخـــوّل لها أن تقتل الآخـــرين"[29].

• **ريـــمـــون شـــاندلـــر** : Raymond Chandler : لـــه عدّة رواياتٍ منها: **وداعاً جـــميـــلتي، الـــنوم العظيم، النـــافـــذة الكبيـــرة، سيّـــدة البحـــيـــرة**... وكلّها تدور على الأغنياء واستضعافـــهم للفقراء، ويشوب ذلك كلّـــه مشاعرٌ عنيفةٌ وقلقٌ وقتلٌ يلّف الحبكة البوليسية. وإنّ : " روايات شاندلر عن الموت بألفتها وغرابتها ذات بعدٍ ميتافيزيـــقيٍّ تقريبـــاً"[30].

4- عناصـــر الروايـــة البوليسيـــة :

تقوم الرواية البوليسية على مجموعة عناصر أساسة يتطلّب حضورها دوماً. وفيما يلي سنقوم بتقديمها:

4-1- الجريمـــة الغامضـــة: Le Crime mystérieux

إنّ الجريمة هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الرواية البوليسية وبدونها لا يمكن إعطاء روايةٍ ما هذه التسمية. فنجدها تصبّ جلّ اهتمامها على إخراج النّـــص البوليســـي في ثوبٍ يشدّ القارئ إليه ويفزعه: " إنّ التركيز على الجريـــمة البشعـــة وتقديمـــها للقارئ في صورةٍ مفزعـــةٍ لا إنسانيةٍ، تخلـــق في نفسه فزعاً شديداً وتجعل منه طـــرفاً في القضية يسعى – صحبة المحقّـــق– للكشف عن الجانـــي والمطالـــبة بحقّـــه"[31].

تهدف الرواية البوليسية إلى: " كشف الستار عن الجريمة بعد النجاح في طرح اللغـــز بكيفيةٍ تجعلـــه لأوّل وهلةٍ مغلقاً مستعصياً على الحلّ. وهي بذلك تطرح الأسئلة الآتية: متى وقعت الجريمة؟ Quand. كيف وقعت ؟ Comment. أين وقعت ؟ Ou. من نفّذها ولماذا ؟ Pourquoi ".[32]

تختلف طريقـــة التعبير عن فعل الجريمـــة من روايـــةٍ بوليسيـــةٍ إلى أخرى، وذلك حسب تقديم الروائي لأحداثـــها فنجده يجليّـــها لنا فجأةً بغموضٍ ولبسٍ مع تقديـــم شخصية المجـــرم والضحيّة والمحقّـــق بما توّفر لـــه من معطياتٍ.

4-2- المـــجـــرم : Le Criminel

فـــاعل الجريمة هو كلّ من قام بارتكابها؛ فقد يحدث أن يرتكب الجريمة شخصٌ واحدٌ يصمّم لها وينفّـــذها، أو يقوم أكثر من شخـــصٍ بارتكـــابها بأن يسخّر من يعمل لـــحسابه ويحرّضـــه على ارتكـــابها مقابل الهـــبة أو التهديد أو الإســـاءة لاستعـــمال السلـــطـــة. وقد تتعـــدّد الجرائم بتعدّد المساهمين فيها فيكون لكلّ منهم جريمـــته الخاصّة به. وهنا نجد أنّ الكـــاتب يصبغ شخصيـــة المجرم بصفاتٍ إجـــراميةٍ قاســـيةٍ يجعلـــها من طباعها.

4-3- الضحيّـــة : La Victime

لا توجد روايـــةٌ بوليسيـــةٌ من دون جثّـــةٍ أو ضحيّـــةٍ، إذ تعتبـــر إحدى العناصر المهمّـــة: " الروايـــة البوليسية من دون جـــثّـــةٍ غير ممكن"[33]. ولا تعتبر الضحية نقطة بدايـــة التحقيـــق لأنّها لا تلعب أيّ دورٍ سلبـــيّ ولأنّها قد ماتت عندما بدأ الحكي. لذلك نجـــد السارد لا يهتمّ بوصف ما يتعلّـــق بها إلاّ مع الأحداث المتلاحقة أثناء التحقيق.

تجدر الإشـــارة أنّه كلّما كثرت الضحايا في الرواية البوليسية كلّما زاد ذلك في الإثارة والتشويـــق وأخذ نفس القارئ، وهو ما يوجب نجاحها.

4-4 التحقيق : L'enquête

هو ما تتّخذه عادةً السلطات المســؤولة من إجراءاتٍ في تعقّب المجرم والأدلّـــة التي تدينه للحكم عليه من خلال لـــمّ شـــتات وأطراف القضيـــة التي باتت لغـــزاً محـــيّراً، فتباشر التفـــتيش في مكان وقوع الجريـــمة علّـــها تعـــثر على أشـــياء مفيـــدةٍ. وفي ذلك يمكن الاستعانة بالبعض ممـــّن شهد الحـــادثة بمن فيهم المتّهم في بعـــض الروايات : " يبدأ المخبرون التحقيقَ في جرائم القتل بالبحث عن بقع الدم وبصمات الأصابع والأسلحة، كما يقوم المخبرون أيضاً باستجواب الشهود أو المشـــتبه فيهم، أو من قد يكون لديهم معلوماتٌ عن الجريمة. يقوم عـــدّة فـــنيـــّين متخصّـــصين بمساعـــدة المخبـــرين في التحرّي، بعضهم من ضـــبّاط الشـــرطة والبـــعض الآخر من المـــدنيين المـــدرّبين..."[34].

والتحقيق هو هـــمّ الكاتب والمحقّـــق والقارئ على حدٍّ سواءٍ، لكنّ طرق البحث والوسائل المستخدمة في ذلك تختلف وتتغيّـــر من روايةٍ بوليسيةٍ إلى أخرى لذلك قد يطول التحقيق فيها من بدايتها حتى اقتراب نهايتها.

4-5- المـــتّـــهم:

هو الذي يشتبـــه به في ارتكاب الجريمة سواء أظهر في نهـــاية التحقيق بريئاً أم مجرماً، بعد أن يضع المحقق مجموعةً من الأسئلـــة يعتبرها مقنعةً له: من نفّذ الجريمة؟ ما غايـــته؟ كيف فعل ذلك؟ فيبـــدو لـــه الاستنـــتاج لأوّل وهلةٍ سهلاً لكنّ ذلك يحتاج لتحقـــيـــقٍ وبـــحثٍ واستقـــصاء للأدلّة

التي تركها المجـــرم. وقد يستدعي المتّهم على إثـــرها للتحقـــيق كشاهـــدٍ في القضية ويخفي عنه أنّه المتّهم الرئيس في القضية.

4-6- الـــمحقّـــق : Le détective

يكون أحياناً المحقّـــق تابعاً للشرطة أو هاويًا أو متحرّيًا، وعليه أن ينتقل فوراً إلى مكان الحادث بعد إخباره لإجراء المعايـــنات الأوليّـــة، فيصطحب معه خبراء مؤهّلين وقادرين على تقدير ظروف الوفاة. ويمارس المحقّق وظيفته لتحديد المتّهم، وإذا استدعى التحقيق المبدئي فعليه أن يوقف شخصاً يشتبه به بطلب سند إعلامي لنشر إشعاراتٍ أو صورٍ تخصّ المتّهم ليجري البحث عنه في أيّ مكانٍ، شرط أن يكـــون له إذن مكـــتوب يُظـــهره عنـــد الحـــاجـــة.

تطفو شخصية المحقّـــق لتجذب انتباه القـــارئ بذكائها وبالدور المركزي الذي يلعبه لأنّـــه مدار الاهتمام وحامل الفعل القصصي البطـــولي: " شخصية المحقّق تأخذ حيـــزاً كبيـــراً من حجم الرواية، وتحظى بعنايةٍ خاصّةٍ من قبل الكاتب، بل وتعبّر في بعض الأحيان عن شخصيته الخاصّة وأفكاره المتمـــيّزة"[35]. كما يمتـــاز بأنّـــه: " بعيدٌ عن الخطأ، لأنّ مجرى الأحداث التي يتحرّك ضمنها مدروسةٌ مسبقاً، بحيث إنّ وقوع أيّ خللٍ يعرّضها للتصدّع جمـــلةً وتفصيلاً، لذا فهو محكومٌ عليه أن يكون رجـــلاً خارقـــاً(Superman)، بعيداً عن عالم الشخصيات العادية المعرّضة عادةً للخطأ والصـــواب"[36]. بالتالي، فهو يتّسم بالنـــزاهة والشجاعة والإخلاص دفاعًا عن الحـــق، لذلك نراه يوظّف ما توفّر لديه من قدراتٍ ذهنيةٍ وعقليةٍ يتفـــوّق به على المجرم مهما بلغت درجة ذكـــائـــه. ونرى الكاتب في سرد أحداث الرواية: " يركّز على الجانب الذهني للمحقّق أكثر من اهتمامه

بحركاته ونفسيته، ويتجاهل كليّةً ما يتعلّــق بهذه الشخصية كإنسانٍ، وعلى القارئ الذكـــي أن يتصوّر ملامح وشكل وسنّ المحقّق من خلال بعض التلميحات الخاطفة غير المركّزة"[37].

خاتمة :

تهتمّ الرواية البوليسية بالبحث عن المجرم وكشف مجرى الجريمة وأسباب وقوعها، ولها صلةٌ وثيقةٌ بالواقع الذي تُستوحى منه الجرائم الواقعية التي اطّلع عليها الكتّاب، الأمر الذي جعلها تشتهر شهرةً واسعةً وتتبوّأ مكانة هامّةً بين مختلف أجناس الأدب الهامشي، إلى درجة أنّ معظمها حُوّل إلى أفلامٍ بوليسيةٍ ذاع صيتها وصيت محقّقيها.

تُعتبـــر الرواية البوليسية أدباً مهمّشاً هدفها الترفيه والإثارة فقط كما تقول بذلك المؤسّسة النقدية. لكنّ ذلك لم يَحُل دون حيازتها مكانةً هامّـــةً ؛ فإن اُعتبرت من الآداب غير الرسمية، فقد تمكّنت من استقطاب الكثير من القرّاء الذين تابعوها باهتمامٍ بالـــغٍ متابعين تفاصيلها وجزئياتها الدقيقة.

وكفى بالمقروئية والتلقّي اللذين حازت عليهما الرواية البوليسية دون سائر الأنواع الهامشية للاعتراف بأدبيتها، حتّى وإن غضضنا الطرف عمّا تـــمتاز به أسلوبـــاً وقيمـــةً فنيّـــةً تظهر في لغـــتها بـــما في ذلك الخيـــال الواســـع.

الهوامش :

(1) - Le petit Robert1: Dictionnaire de la langue française, Paris, France, 1992, page 1475.

(2) - Boileau- Narcejac : Roman Policier, Collection Que-sais-je, PUF, 1ere Edition, 1975, Page 50.

(3) - Le Grand Dictionnaire Encyclopédique de la langue Française, la langue et les noms propres, édition de la connaissance, 1996, page 862.

(4) - Dictionnaire Hachette Encyclopédique, Edition 2000, Paris, France, Page 1484.

(5) - Dictionnaire Encyclopédique Quillet, librairie aristite quillet, Paris, France, 1981, Page 5336.

(6) - Boileau - Narcejac : roman policier, op.cit, page 5, 6.

(7)– نقـــلاً عن: عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية ، بحث في النظـــرية والأصول التاريـــخية و الخصائص الفنية وأثـــر ذلك في الرواية العربية ، اتحاد الكتّـــاب العرب ، دمشق ، سوريـــا، 2003، ص 41.

(8)– الكتاب المقدّس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد : سفر التكوين، الإصحاح الرابع: 8 – 12، جمعيات الكتاب المقدّس المتّحدة ، كامـــبريـــدج ، المملكـــة المتّـــحـــدة ، 1971.

(9)– عبد القادر شرشار: الروايـــة البوليسيـــة، بحث في النظـــرية والأصول التاريـــخية والخصائـــص الفنية وأثر ذلك في الرواية العربيـــة، اتـــحاد الكتّـــاب العرب، دمشـــق، ســـوريا، 2003، ص39.

(10) -Stéphanie Dubout : le roman policier, Les essentiels Milan, France, 1997, page 04 .

* في ذلك راجع : ماهر البطوطي : الرواية الأم ألف ليلة وليلة والآداب العالمية، دراسة في الأدب المقارن، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، 2005، ص 294 – 303.

(11) – ماهـــــــر البطوطي: الرواية الأم ألف ليلـــــة وليلة والآداب العالمية، مرجع سابق، ص 303.

(12) -Stéphanie Dubout: le roman policier, OP, cit, page 04.

**رواية الجريمة والعقاب تحكي قصة رجل (راسكولينكوف) رهن حلية عند عجوز مرابية، ثمّ قتلها لينعم بثروتها. لكن ما حدث هو العكس إذ صحا ضميره ووقف حاجزا أمامه يمنعه من تحقيق مبتغاه، فشعر بخطورة ما قدّمت يداه، فحاول جاهدا التخفّي والتملّص من الشرطة التي باشرت التحقيق واتهمت شخصا آخر بريئا. ثمّ يعترف بذنوبه

وينقاد للمنفى بسيبيريا مقيّدا بالأغلال، ليجد هناك راحة معنوية وروحية خلّصته من عذاب الضمير.

(13) – ف. ف. كوزينوف: موسوعة نظرية الأدب: إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، القسم الثاني: الرواية ملحمة العصر الحديث، ترجمة الدكتور جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغـــداد، العـــراق، الطبعة الثانية، 1986، ص 126.

*** راجع أكثر كتاب: كوزينوف : موسوعة نظرية الأدب: إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، القسم الثاني: الرواية ملحمة العصر الحديث، مرجع سابق، ص 106 – 163.

(14) – زبيـــــر دراقي: محاضرات في الأدب الأجنبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1991، ص179.

(15) - Boileau-Narcejac : Roman policier ,OP cit, page 76.

(16) -Alain Michel Boyer: La paralittérature, Que - sais-je? Imprimerie des presses universitaire de France, 1992, page 43.

(17) - Stephanie dubout: Le roman policier, OP,cit, page 13.

(18) - Ibid, page 26, 27.

(19) - Ibid, page 30.

(20)- Boileau-Narcejac: Roman policier, Op, cit, page 07.

(21).- Ibid, page 67.

(22) - Yves Reuter: le roman policier et ses personnages, presses universitaires de Vincennes, Paris, 1989, page 147.

(23)– ماهر البطـــوطـــي: الروايـــة الأم ألـــف ليلـــة وليلـــة والآداب العـــــــالمـــية، مرجع سابق، ص 304.

(24)– نخبة من الأساتـــذة: تاريخ الأدب الغربي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشـــــق، سوريا ، الجزء الثاني، ص 564.

**** راجع في ذلك أكثر كتاب: عبد القادر شرشار: الروايـــة البوليسيـــة، مرجع سابق، ص 9–11.

(25)-Yves Reuter : le roman policier et ses personnages, op, cit, page 170.

(26)-Boileau- Narcejac : roman policier, op, cit, page 89.

(27) - Ibid, page 92.

(28) - J.P de Beaumarchais, Daniel Couty, Alain Rey : Dictionnaire des littératures de la langue française, Ouvrage publié avec le concours du centre national des lettres, Paris, 1984, page 1987.

(29)– الرواية البوليسـية: موسوعة المعارف الحديـثة، الآداب 2، منشورات فيليب أوزو، ترجـمة مبارك وساط، المـغرب، 2001، الـجزء الرابع، ص 99 ، 100.

(30)– الروايـة البوليسيـة، موسوعة المعارف الـحديثـة، الآداب 2، مرجع سابق، ص 101.

(31) – عبد القـادر شرشار: الروايـة البوليـسيـة، مرجـع سابـق، ص 136.

(32) – المـرجع نفـسه، ص 140.

(33)-Stéphanie Dulout: le roman policier, op cit, page 18.

(34) – الشـرطـة: المـوسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعـة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانيـة، 1991، المـجلّد 14، ص 92.

(35) – عبد القـادر شرشار: الروايـة البوليسيـة، مرجـع سابـق، ص 85.

(36) – المرجع نفسـه، ص 87 ، 88.

(37) – المرجع نفسـه، ص 89.